**الأدب الفلسفي / السنة الرابعة**

**البداية صور أربعة عن الرواية ( هل يصبح القتل .. الخ )**

**ثم هاتين المحاضرتين**

**المجموع ٣ محاضرات ديستويفيسكي**

**رواية الجريمة والعقاب / تكملة : الجزء الثاني**
**د. زياد كمال مصطفى آيار / ٢٠٢٠**

## سيكولوجيا الجريمة والعقاب لديستويفسيكي

ما إن يرتكب راسكولينكوف جريمة القتل تلك ، حتى يدخل في نوبات من الذعر والهذيان والاضطراب التي تتملك نفسية القاتل ، " لقد أصبح أسير هواجسه وكوابيسه ، حيث يتبين له أنه عاجز نفسياً عن احتمال جرمه، وأن ثمة ألما عظيماً يثقل كينونته " . حينها يتيقن أنه ليس بالإنسان الأعلى الذي ظن أنه يمثله، فيتشظى أكثر في دوامة من الاحتقار والكراهية لذاته تارة ؛ التي اتضح له الآن بجلاء كبير أنها ليست من طراز العظماء كنابليون ؛ وبين مشاعر الندم والرغبة في الاعتراف والتخفف من وطأة الجريمة وثقلها تارة أخرى.

منذ اللحظة الأولى ؛ لا تبارح أحداث الجريمة ومشهد المرأة العجوز وهي مضرجة بدمائها ذاكرة راسكولينكوف، وهو ماكان يعذبه عذاباً لا طاقة له به، فكان يردد على نفسه "أيكون هذا هو العقاب؟ نعم، نعم، إن هذا هو العقاب . " ! وهكذا يقدم دوستويفسكي رؤية للعقاب قائمة على العذاب النفسي الرهيب الذي يعاني منه مرتكب الجريمة والذي يدفع بصاحبه إلى حافة الجنون!

يصل راسكولينكوف إلى حالة من الهذيان تقارب الهلوسات، وهنا يصور لنا دوستويفسكي عالم راسكولينكوف الداخلي باقتدار بالغ، حيث يبلغ به الأمر أنه "كان كلما رأى أحداً إلا وظن بأنه يعرف حقيقته وجرمه" ، إنه شعور يضيّق الخناق على المجرم ويثقل كيانه ويهده، وهو ما

سيدفعه إلى البحث عن الخلاص ممثلاً بالاعتراف بالجريمة والخضوع للعقاب. لقد أصبح العقاب منذ الآن مطلباً!

إنه "دواء هذا الهاجس المؤلم الذي يختلج بداخله . كأن معادل كل جريمة هو العقاب. إنه ليس فقط معادلها القانوني، بل الأهم من ذلك :إنه معادلها النفسي . "لكن الخلاص بالنسبة لراسكولينكوف لن يتحقق بمجرد الاعتراف بجرمه وحسب ، بل لا بد قبل ذلك من الخروج من حالة الاغتراب والعزلة التي فرضها على نفسه ، وهو ما سيكون بالعودة إلى هويته القومية وعقيدته الدينية!

**الخلاص: العودة إلى منابع الذات**

أثناء اضطراباته وهذيانه ، يتعرف راسكولينكوف بفتاة تدعى سونيا ، تعد سونيا رمز للتجذر والأصالة الروسية ، فعلى الرغم من كونها قد أُجبرت على سلوك طريق غير سوي لإعالة أشقائها، إلا أنها تتسامى فوق معاناتها بحيث لا تُزعزع الرذيلة من إيمانها وأصالتها مثقال ذرة!

يشعر راسكولينكوف بعاطفة غريبة تجاه سونيا، حيث يرى فيها "نوعاً من الشفقة التي لا يمكن إشباعها" ، وهذا يقوده نحو اختبار أول احساس بالندم. هنا يندفع راسكولينكوف بالاعتراف لسونيا، والتي سترشده على طريق الخلاص عبر التمسك بالإنجيل طالبة منه تسليم نفسه والاعتراف بذنبه، فالخلاص لا يتحقق إلا من خلال الألم الذي يعد شرطاً نفسياً للتطهر من الجريمة، وهي فكرة نجد أن دوستويفسكي يقتبسها من اللاهوت المسيحي.

وقبل ذهابه لتسليم نفسه، تقوم سونيا بإهدائه صليبها، وهو ما يمثل رمز الانعتاق والخلاص في المسيحية. فكما هو معروف في اللاهوت المسيحي، فان الصليب يرمز الى تضحية المسيح بنفسه من أجل خطايا البشرية ، وهو ذات ما ستفعله سونيا حيث ستضحي بنفسها حين تتبع راسكولينكوف إلى المنفى في سيبيريا من أجل إنقاذه وإعادة إيمانه بالحياة.

وكما قامت سونيا بمصالحة راسكولينكوف مع القيم المسيحية فإنها ستقوم بمصالحته مع هويته القومية، وذلك حين تطلب منه أن يذهب "إلى ميدان من الميادين ويسلم على الشعب، ويقبل الأرض لأنه أثم في حقها، ويقول بصوت عال يسمعه جميع الناس: إنني قاتل ! وهو ما قام به بالفعل قبل تسليمه لنفسه، وهكذا سيكون التصالح مع الشعب والذات عامل خلاص آخر لراسكولينكوف من خطايا التغريب التي عصفت به.

تُظهر الرواية كيف أن الدين لا يعد شأناً شخصياً وإنما يعدّ –بالمقام الأول– مكوناً من مكونا الهوية الجماعية والفردية ، فراسكولينكوف الذي يتشوش بفعل الحداثة لن يجد الخلاص إلا بالعودة لهويته الدينية ، إضافة إلى أنها تظهر نزعة دوستويفسكي القومية ورفضه للقيم الليبرالية الأوروبية وعدائه الشديد لها ، كما أن الرواية تعد مفتاحاً لفهم النفسية الروسية المعتدة بذاتها ، ومدخلاً لفهم علاقاتها المتوترة مع المعسكر الغربي حيث تسعى روسيا لاستعادة كرامتها المفقودة على إثر انهيار الاتحاد السوفياتي.

انتهى الجزء الثاني

**رواية الجريمة والعقاب / تكملة : الجزء الثالث**

**د. زياد كمال مصطفى آيار / ٢٠٢٠**

**تحليل مغزى رواية "الجريمة والعقاب"**

تميز اسلوب دوستويفسكي بقدرته على التعبير عن مكنونات النفس البشرية ، فقد عرف بتوجهه الإنساني وبنزعته الفلسفية التي بدت واضحة في أعماله الأدبية ، حيث يتجلى في هذه الرواية التزاوج بين الصناعة الفنية والبعد الفكري الذي يضفي على الرواية ملامح رسالة للإنسانية كافة ، ولعل أسلوبه يمثل خير دليل على وجود الصراعات البشرية ، وكيف أن الانسان يصبح متوحشاً ، حينما يمس مصالحه خطر ما ، في هذه الرواية كما يتبين من عنوانها (الجريمة و العقاب)،

يتناول الكاتب: ١/ موضوع الخير والشر الكامن في أعماق نفس الانسان ، والذي يرتبط بالجريمة بالمعنى الواسع ، فقد صورت ما يعتمل في نفس المجرم وهو يقدم على جريمته ، يصور مشاعره في ثلاث مراحل ، مرحلة ما قبل ارتكاب الجريمة ، ومرحلة ارتكاب الجريمة ، ومرحلة ما بعدها ، كما يرصد لنا الكاتب : ٢/ كيف ان المحرك الأول والأساس للجريمة هو التمرد على الأخلاق العامة ، لقد اكتشف بطل الرواية (راسكولينكوف) ان هناك قوة غريبة تدفع الانسان المتفوق إلى ركوب المغامرة إلى أبعد الحدود ، ويشرع في ارتكاب الجرائم ليثبت تفوقه ، والبطل يقلد من يراهم من المتفوقين ويرتكب جريمته ، ولكن العقوبة التي يتلقاها من هذه الجريمة قاسية جداً ، فيُتهم بالجنون، وأنه مصابٌ بأمراض نفسية غريبة، حتى يصل به إلى حد التفكير في الانتحار.

فالرواية تطرقت لموضوع مهم جداً وهو الجريمة كمشكلة اجتماعية وأخلاقية ، وما لها من نتائج على الواقع الاجتماعي، وردود أفعال أخلاقية لهذا الفعل ، حيث ترتكزت الرواية على قيام طالب جامعي موهوب وهو (راسكولينكوف) بالإقدام على قتل مرابية عجوزة وشقيقتها لدوافع نفسية و أخلاقية، ومن هذا المنطلق نجد الكاتب يهتم كثيراً في روايته بإبراز ظروف الواقع الاجتماعي ،التي تحصل فيها الجريمة كثمرة من ثمار (السكر و الفقر وانحطاط الأخلاق) ،وهذه الأمراض الاجتماعية هي التي يعانيها سكان مدينة بطرسبرج ( مسرح احداث الرواية )

إن حياة الناس البسطاء أمثال الشخصية البطل )راسكولينكوف) وأمه وأخته ، وعائلة (مارميلادوف) ، من معارف (راسكولينكوف ( وابنته (سونيا) ، تبدو مظلمة وقاتمة، يشوبها اليأس والعذاب والفقر والانحراف ، الذي انغلقت أمامه كل السبل ، ومن الفكرة التي اثارها بطل الرواية ، يجري الحديث بأن المجتمع الانساني مقسم على قسمين هما أ- العامة ، وب- المتميزون الذين يحق لهم خرق القوانين في سبيل تنفيذ افكارهم . كما أنه قسّم شخصيات الرواية إلى مجموعتين تمثلان مواقع اجتماعية متعارضة :مجموعة تمثل الشعب المسحوق، الذي يطحنه الفقر والحاجة والحرمان، وتتمثل في كل من (راسكولينكوف وسونيا وعائلاتهما)، ومجموعة أخرى تمثل أصحاب المال الذين تعطيهم ثروتهم "حق" الإساءة إلى المحتاجين، وفي مقدمة هذه المجموعة تبرز "اليونا إيفانوفا" العجوزة الشريرة التي تمارس الربا مع الناس وتستغلهم.

والملاحظ في مجمل روايات (دوستويفسكي ) أننا نلتمس ونتوقع كل شيء في تطور إحداث الرواية ؛ ونكون إمام تصاعد حبكتها متوقعين ما لا نتوقعه ، وهذه هي عظمة (دوستويفسكي) في كتابة الرواية، لأنها تشد القارئ إليها، بكون تصاعد الإحداث تتوجه بغير ما يمكن توقعه؛ نظرا لتشابك وتداخل العقد النفسية التي يركز (دوستويفسكي) عليها والتي من طبيعتها أنها لا تخضع لأي قواعد ثابتة؛ بقدر ما تتلاعب بها المشاعر والأحاسيس وهي تكون وفق أحداث ومؤثرات البيئة والمحيط، مضطربة وسوداوية النزعة وليس لها اتجاه ثابت؛ تأتي وتمضي كالرياح بدون شكل ولا جسد ولكن تترك اثأر مدمرة إذ عصفت بشدة أو عكسها، وهذا ما نلاحظه في أغلب رواياته ومنها "الجريمة والعقاب" و "المراهق" وغيرهما مما تتميزت بالبعد النفسي والسلوكي والاجتماعي.

لقد أثار (دوستويفسكي) بوساطة رواية "الجريمة والعقاب" سؤالاً هاماً هو : هل قتل الانسان للانسان جريمة؟ ، إذا كان الجواب : ( نعم) ، فلماذا لا نحاسب بعض الأشخاص الذين قتلوا المئات ، بل الألاف من الناس ، ومع ذلك يُنظر اليهم كأبطال أو كقادة كبار، و ما الذي جعل هؤلاء بمرتبة عليا لا تمسهم يد القانون و العدالة؟ من هذه الحالة يندفع بطل الرواية

(راسكولينكوف) الطالب الجامعي للقيام بارتكاب جريمة قتل ، بدوافع اجتماعية وانسانية وفق رؤيته ، فيصبح هذا السؤال عاملاً يحثه على ارتكاب الجريمة ، ومن هنا يتولد سؤال آخر في نفس القارئ عن ماهية العدالة بين البشر ، أي هل هناك عدالة ؟ ام انها صنيعة الانسان ، لتمرير ما يراه مناسباً ، و لمحاسبة ما يراه خطراً عليه وعلى مصالحه؟

حاول دوستويفسكي في روايته وعبر بطل الرواية (راسكولينكوف) عرض أحاسيس الشخص الذي يقوم بارتكاب الجريمة ، و صنّف هذه الأحاسيس على ثلاث مراحل:

/1مرحلة ما قبل الجريمة ، وهي أحاسيس فياضة ، تحفز الشخص للقيام بما ينوي ، ويفكر بان تكون جريمة متقنة ، من غير ان يترك أي أثر ، قد يُستدل عليه اثناء التحقيق ، يفكر ويخطط ، ماذا يفعل؟ وكيف يمكن استدراج الضحية؟ وكيف ينفذ الجريمة ؟ ثم ماذا يعمل بعد الانتهاء من جريمته؟

/2 أما مرحلة ارتكاب الجريمة فيصاب المجرم بقلق شديد ، ويفقد السيطرة على بعض من أفعاله ، وقد تكون الظروف ضد خطته في اللحظات الأخيرة من ارتكابه للجريمة ، وفي تلك اللحظة يرى نفسه ضعيفاً ، ويرتكب أخطاء قاتلة أو تصرفات غير مدروسة و لاعقلانية ، ثم 3 / تأتي المرحلة الثالثة وهي الأهم ، مرحلة ما بعد ارتكابه الجريمة ، وفي هذه المرحلة يقع المجرم فريسة لحالة نفسية مشوبة بالقلق و تأنيب الضمير، وهذه الحالة قد تؤدي إلى اعتراف المجرم بالجريمة ، كما حدث مع بطل الرواية.

وأخيراً فقد حرص (دوستويفسكي) في عموم رواياته على تسليط الضوء مع الغوص في سلوك الإنسان وما يصدر من أعماق النفس بفعل إرادي أو لا إرادي، والتي تطرح لنا أسئلة فلسفية عميقة في قيمة الوجود والإيمان والأخلاق والمقرونة بالتحليل النفسي والسلوكي للإنسان، هذه المعرفة النفسية والسلوكية التي لم تكن آنذاك موسعة كما هو الحال اليوم؛ ولكن (دوستويفسكي) استطاع بعبقريته وبتفكيره المعرفي تحليل سلوك الإنسان وتقلباته المرضية والنفسية والسلوكية والاجتماعية وبكل ما يعتريها من تناقضات وصراعات مع وجودها وعلاقاتها في أطار المجتمع؛ بشكل مثيرا بحيث أصبحت مصدرا للبحوث النفسية لاحقا، فما طرحه (دوستويفسكي) من أفكار وما قدمه من تحليلات وما طرحه من الأسئلة عبر شخصيات رواياته وبطريقة متميزة والتي جلها تتعلق بالإنسان ووجوده؛ هي من جعلت رواياته جديرة بالقراءة في كل عصر لتميزها بطابعها التحليلي والتأملي والنفسي والفلسفي التي تسهم في تزويد الإنسان بوافر من المعرفة.

**نهاية الجزء الثالث**

**كلماتها المفتاحية الهامة:**

- **ما تميز به ديستوفيسكي من أسلوب.**
- **البعد الاجتماعي والاخلاقي للرواية.**
- **كيف حمل بطل الرواية "راسكولينكوف" رسالة ديستوفيسكي.**
- **توظيف عنصر التشويق في الرواية.**
- **السؤال الأبرز في الرواية: " إذا كان القتل جريمة ، فلماذا لا نحاسب كل القتلة"!!**
- **المراحل الثلاث التي خطط لها الكاتب لبطل الرواية.**
- **البعد الانساني والوجودي في أدب ديستوفيسكي**